مشتغلون وبقي ذلك كذلك الى ان ظهر تحت سماء مصر كتاب الاستاذ الكبير العالم الاجتماعي الشهير ديمولان الذي ابان فيهِ كل احوال الفرنسيس في هيئاتهم الاجتماعية كلها وبيَّن ما في كل واحدة منها من النقص وقابل ما عندهم بما عند جارتهم الامة الانكليزية من كمال تلك الهيئات ومتانة اصولها مبيّناً اسباب ما لديهم من ذلك الكمال ولذلك وسمهُ باسم (سرّ تقدم الانكليز السكسونيين)

ولما اعترتني الصدفة بهذا الكتاب ترجمتهُ الى اللغة العربية ليعم النفع بهِ فانهُ ان بقي على اعجميتهِ كان بالنسبة الى بلادنا كانهُ لم يكن

ما وُجد هذا الكتاب مترجماً في ايدي الناس وقرأهُ العامة والخاصة منهم حتى ترتبت عليهِ الفائدة التي قصدتها والتفت حضرة الفاضل محمد افندي عمر الى ما عليه امتنا المصريَّة من التأخر والانحطاط فقام ينظر في الاسباب وطرق لذلك جميع الابواب حتى استجمع كثيراً من احوال الاغنياء والمتوسطين والفقراء وجمع الجميع في كتاب سماهُ (حاضر المصريين او سرّ تأخرهم)

تصفحت هذا المؤلف الجديد فاذا هو قد ألمَّ بالمطلوب ووفى البحث حقهُ فتكلم عن اخلاق الطبقات الثلاث التي تتألف منها امتنا المصريَّة وعن عاداتها وحالها في كل مجتمعاتها بما ابان العلة وشخص الداء وارجع جميع الادواء الى اصول الاخلاق وبرهن على ان العمل انما هو الموصل الى السعادة

الحق احق بالاتباع والضرر انما هو في تمويه الحقيقة بما يسمونهُ تستراً والنصح ان كان مرّاً ربما حلت عاقبتهُ وحمدت غايتهُ على انهُ ان كانت النصيحة بالتي هي احسن فلا يضيع فيها الصدق بالاخبار عن الواقعيات وقد يكون الواقع اشد ما يكون سماعهُ على النفوس فلابد اذن من أن يتحرى الناصح الحق ويبين العيب ويدعو الى التنصل منهُ والتنحي عنهُ ولا بد من ان البذرة تنبت متى وُضعت في

ارض صالحة واستكملت الشروط وكل النفوس صالحة لتلقي النصيحة ولا ينقصها الاَّ ان يكون زارعها مستجمعاً لشروط القبول ومتى صلحت النية فكل عمل صدر عن صاحبها فهو وان كان صعباً يكون مقبولاً

كان يسرني كثيرًا ان انتقد على هذا الكتاب في موضوعهِ فاقول ان هذا العيب الذي ذكرهُ مؤلفهُ في الصنف الفلاني غير موجود ونسبتهُ اليهِ غير صحيحة غير اني آسفٌ اسفًا شديداً لما رأيتهُ من ان صاحب الكتاب لم يذكر عيباً في طبقة ولم يندّد بعادة ولم يعير بخصلة ولم يتعرَّض الى خلة الاَّ وجدتهُ بعد التدقيق مصيباً فيما قال صادقًا فيما نسب بل رأيتهُ مستعملاً الرقة في البيان والتلطف في المقال

الحقيقة التي لاريبة فيها ان مجموع الاغنياء منا منصرفون عن هذا العالم بأسرهِ غير عالمين بانهم في هذه الدنيا فما عليهم منها اذا عمرت او عمها الخراب ولذلك نرى كل واحد منهم وحدهُ يهيم في لذاته غير مبالٍ بضياع المال الذي جاءهُ عفوًا بطريق الصدفة لانهُ ابن فلان وارتفعت فيما بينهم صفات التعارف وضاعت من ايديهم ثقة كل واحد باخيهِ فكانوا بذلك هملاً تضيع ثروتهم ولا يعلمون ويؤخذون على غرةٍ وهم غافلون وهم اولى بان لايعدون من الامة فضلاً عن انهم هم العالون

سرت هذه الحال من الاغنياء الى المتوسطين لانهم اقرب اليهم وربما خالطوهم او سمعوا من اخبارهم والوهم قتال فتشبهوا بهم على غير روية وقلدوهم بحكم تسلط طبع القوي على الضعيف فمالوا ميلهم وطبعت نفوسهم على محبة الظهور الباطل وتنافسوا في الشهوات وتفانوا في اللذائذ وقالوا انَّا اطعنا سادتنا وكبراءنا ولم يقولوا فاضلونا السبيل فكانوا بذلك خاسرين ضائعين

الفقراء وهم السواد الاعظم مسيرون لامخيرون وليس في ايديهم ما يصرفونهُ

هباءً في لذة ورأس مالهم الذي هو قوتهم وعافيتهم وصبرهم على تحمل المشاق مدّخر عندهم في خزانة الكسل وليس لهذا مفتاح الاَّ نصح الناصح مسموع الكلمة وهو لا يكون الاَّ من طبقة اعلى بحكم العادة القديمة وهذا كما تقدم لا يهمهُ صلاح ولا يعنيهِ فلاح في نفسهِ فما الظن بهِ في غيرهِ ان نام الفقراء وضاعت رؤوس اموالهم التي اكتسبوها بالطبيعة وكانت تنفعهم كثيرًا لو صرفوها في تحصيل الرزق الواسع وما هم بفاعلين

لو التفت الاغنياء والمتوسطون الى ان ذنب اولئك الضعفاء الفقراء في رقابهم واقبلوا على العمل النافع لانتقل اولئك المستضعفون من حالهم الى ما هي خير منها ولعاشوا في نوع من السعة والنعيم. اذكر ان بعض الاغنياء وغيرهم من كبار المتوسطين اقلعوا من زمان غير بعيد عن استمرار ليالي المآتم الى الاربعين كما كان الحال من قبل فلم يعمل بالامر الجديد سوى اثنين او ثلاثة حتى علق به اصاغر المتوسطين واخذهُ قاعدة جديدة عميمة وسمعنا في كثير من الاندية والمحافل شديد التنديد بالعادة القديمة والتنويه بالجديدة وانتقل الناس بعد ذلك من تقصير ليالي المآتم الى سير سرير الجنازة واخذت العادة الشنعاء تتلطف ولا شك انهُ اذا بقي الكبراء على ذلك تبعهم الفقراء وحل الجديد النافع محل القديم المضرّ في هذا الامر وان كان ليس بالعظيم

واذكر كذلك ان بعض الامراء أقبل اليوم على تحسين حالة الزراعة فالتفت الاصاغر من مجاوريه الى مذهبهِ ولا ارتياب في ان الحالة المعاشيَّة يمكن ان تصير الى حسن ثم الى احسن ان لم يصرف اولئك الاصاغر ما يحصلونهُ فيما لا قبل لهم بهِ تقليدًا للامراء وكذلك لا ارتياب في انهُ لو كثر امثال اولئك الامراء لانتشر عملهم الصالح بين تلك الطبقات فانني لا ارى هذا الاقبال من الضعفاء الاَّ في

المجاورين لقرى اولئك الامراء ولا اشك في انهم لو صلح حال جميعهم في صرف ما يشتغلونهُ لصلح حال مجاوريهم كذلك في هذا الباب و بذلك يتبين صدق ما قلناهُ من ان علة خسارة الضعفاء هم اكابر الاغنياء والمتوسطين وكذلك هم سبب التقدم والنجاح

وبما تقدم كلهُ يستبين انني حكمت في امر هذا الكتاب بانهُ كتاب نافع فيما أُلّف فيهِ وانهُ قد استوفى كل ما يقال فلم يبقَ الاَّ ان احث الناس على الانتفاع بهِ وان اعلمهم بان ما فيهِ هو فينا واننا يجب علينا ان نسارع الى الخروج عمَّا وصمنا بهِ بحق وان مؤلفهُ لا يبتغي منا سوى الصلاح وكنا احق بان نطلبهُ لانفسنا ولو بدون منبه فمن نبهنا اليهِ فقد وجب علينا لهُ الامتنان

احمد

فتحي زغلول

غرض المؤلف

وضعت كتابي هذا على مثال كتاب (سرّ تقدم الانكليز السكسونيين) المعرب بقلم سعادة العالم القانوني الفاضل احمد فتحي زغلول بك رئيس محكمة مصر الابتدائية الاهلية . ولكنهُ مع الاسف يشرح سرّ تأخر المصريين لا تقدمهم . وغاية ما أودُّ ممن يطالع هذا الكتاب ان لا ينظر اليهِ بعين الاستغراب لما حواهُ من كشف المخبآت ورفع الستار عن المعايب التي في جسم الامة وتؤدي بها الى الهلاك بل ارجوهُ ان يكون على ثقة باني ما كشفت ذاك الستار إلاَّ حبًّا بأُمتي وشفقةً عليها لا شماتة . علَّنا اذا عرف الدَّاء سارعنا الى اخذ الدواء قبل استفحال الخطب فنندم حين لا ينفع الندم

اذا انت لم تخبر طبيبك بالذي يسوءك أبعدتَ الدواءَ عن السقمِ

اردت بجمع هذه الادواء التي تضرُّ بصحة امتي ان احث البقية الصالحة من الامة فتهب من غفلتها وتلم شعثها وترأب صدعها وتسد خللها وتبحث عن دواءٍ نافع وبلسم شافٍ تداوي تلك الادواء التي اثقلتنا ونحن عنها غافلون . هذا ما قصدت . وانما الاعمال بالنيات ولكل امرءٍ ما نوى

محمَّد عمر